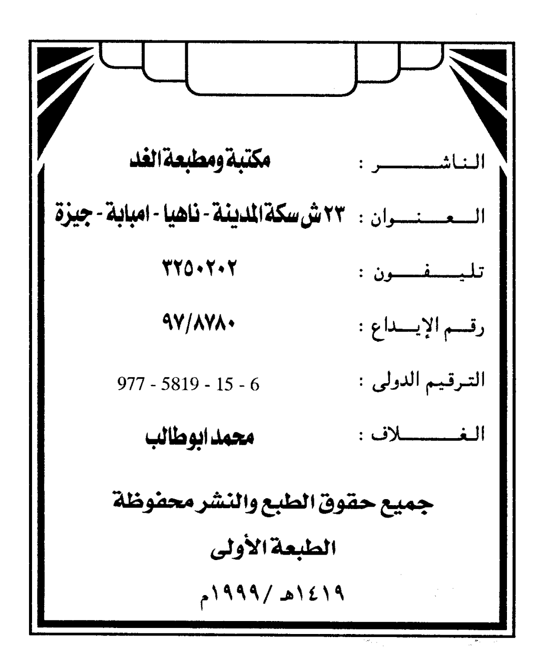
زريـــــــــاب
عبقرى النغم

تأليف

فوزى خضر

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

زرياب
عبقرى النغم



الناشـــر : مكتبة ومطبعة الغد

العنـــوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - امبابة - جيزة

تليفـــون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيـداع : ٩٧/٨٧٨٠

الترقيم الدولي : 977 - 5819 - 15 - 6

الغـــلاف : محمد ابوطالب

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

إشارة

أمسك بريشة النسر بين أصابعه ، وخط بها على أوتار العود تاريخاً جديداً للنغم فى العالم ، ففتح صفحة جديدة فى كتاب الموسيقا الراقية التى تخاطب الوجدان ، وتحقق المتعة للعقول ، وتطلق العنان لخيال الإنسان فى عالم رحب من الأحلام .

إنه **أبو الحسن على بن نافع** ، الذى اشتهر باسم **«زرياب»** ، والزرياب طائر أسود جميل الصوت ، لقد تفتحت عيناه على الدنيا ولديه إحساس بالنغم ، كان يشعر به فى مويجات نهر دجلة فى بغداد ، وكان يشعر به فى وشوشات النسيم ، وفى حركة الزهور المتمايلة مع الرياح ، وفى حفيف أوراق الأشجار ، كان يشعر بالنغم فى أصوات سنابك الخيول وهى تركض ، وأيضاً وهى تسير ، ورأى أن التناغم هو القانون الذى تتبعه مفردات الحياة .

درس زرياب الموسيقا على يد أكبر الأساتذة ، وحين استكمل دراسته انطلق فى دنيا الإبداع ، فغنى بصوته العذب أروع الأغانى ، وعزف أجمل الألحان ، ولم يتوقف عند ذلك

بل طور آلات موسيقية كانت موجودة فى عصره ، واخترع آلات جديدة ، أضافت ثراءً إلى الموسيقا العالمية ، وامتد عطاؤه ، فأنشأ أول أكاديمية لفنون الغناء والرقص والموسيقا ، وأبحر فى محيطات الإبداع الفنى فقدم ما لم يقدمه غيره من الموسيقيين ، وامتدت قدرته على الابتكار إلى نواحٍ كثيرة من مجالات الحياة فصار ملك « الموضة » فى عصره ، يجدد فى أشكال الثياب ، وتصفيف الشعر ، واخترع أنواعاً جديدة من الأطعمة ، بل ومن العطور، وصار نجماً فى سماء الفن والحياة ، يضىء الدروب بإبداعه الفنى المتميز، وثقافته الرفيعة، وشخصيته الجذابة .

* * *

طفولته ونشأته

ولد زرياب سنة (١٦٠) هجرية على الأرجح ، ولم يكن والداه فقيرين فحسب، بل كانا معدمين لا يجدان قُوت يومهما، ولا ندرى أكانا عبدين أم حُرَّيْنِ ، ولكن كل ما ندريه أن زرياب جىء به إلى بغداد ، ليباع فى سوق العبيد، وهو صبىّ لم يتعد التاسعة من عمره ، وفى ذلك إذلال شديد للنفس وشعور بالقهر ، وهو يُعرض ببشرته السوداء التى تجعل نظرات الناس تراه فى مرتبة أقل من غيره من الصبيان أصحاب البشرة البيضاء الذين يباعون بجواره ، كان زرياب طويلاً عن أقرانه ، قوىَّ البدن ، وكان مستدير الوجه ، ينسدل شعره على جبهته حتى يصل إلى حاجبيه ، تنطق ملامحه بالذكاء الحاد ، كل هذه الصفات جعلت وكيل الخليفة- المكَّلف بشراء العبيد - يسارع بشرائه ، وهكذا صار زرياب أحد غلمان الخليفة العباسى محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، كان ذلك سنة (١٦٩) هجرية ، التى هى آخر سنوات المهدى فى الحكم ، وكان من حسن حظ زرياب أن أدركه قبل وفاته .

جاء فى أحد الأيام وفد إلى مجلس الخليفة المهدى ، ورأى الرجل المكَّلف بإعداد المجلس أن يجدد المنظر أمام الخليفة ، فأوقف على جانبى المجلس عدداً كبيراً من الغلمان العبيد ،

وأوقف بين كل عشرة غلمان بيض غلاماً أسود ، وبعدهم عشرة غلمان سود بينهم غلام أبيض ، وهكذا ، فصار منظر المجلس بديعاً ، وشاء حسن حظ زرياب أن يكون بين عشرة غلمان بيض على يمين الخليفة، فصار واضحاً بينهم ، وحان وقت الغناء ، فتقدم إبراهيم الموصلى ، الذى هو من أعظم عباقرة العرب فى الموسيقا ، وأثناء عزفه تمايل زرياب مع النغمات ، فلفت نظر رجلين ، أولهما الرجل المكّلف بإعداد المجلس ، وقد أراد لحظتها أن يقتل زرياب ، وثانيهما الخليفة المهدى ، الذى انتظر حتى فرغ إبراهيم الموصلى من غنائه ، ثم أمر زرياب بالاقتراب منه ، كان الموقف صعباً على غلام فى التاسعة من عمره ، خاصة أنه لاحظ أن الخليفة نظر إليه نظرة خاطفة وهو يتمايل مع نغمات الموسيقا ، وتوقع أن يُعاقبه على ما فعل ، لذلك سار زرياب خطوات قليلة ، وهو يشعر بقلبه ينتفض فى صدره ، لكنه حين نظر إلى وجه الخليفة منتظراً ما سيقوله له ، لم ير فى وجهه غضباً ، بل لقد كان منفرج الأسارير ، على شفتيه ابتسامة خفيفة ، حينذاك شعر زرياب بالاطمئنان ، وتمالك نفسه ، وصار حاضر الذهن حتى يكون جوابه مناسباً لمجلس الخليفة الذى يحضره ضيوفه وعلية القوم ورؤساء الناس ، وقبل هؤلاء جميعهم الخليفة نفسه ، فالتحدث إلى أمير المؤمنين ليس بالأمر الهيّن ، خاصة أن المتحدث إليه مجرد عبد من عبيده .

تحدث الخليفة محمد المهدى إلى زرياب ، وفوجىء الحاضرون جميعهم حين تكلم زرياب ، فقد كان ثابت الصوت ، واضح الحروف ، بليغ العبارة على صغر سنه ، حكيماً فى جوابه على أسئلة الخليفة ، واعتذر لأن إفراطه فى العشق للغناء والموسيقا جعله يتمايل فى مجلس خليفة يتسم عهده بالاعتدال ، وما من مظهر من مظاهر الإفراط فيه إلا إفراط الناس فى حبهم له ، لعدله ورحمته ، وقوته وعفوه ، وشجاعته وحكمته ، وعظمته وعطفه .

أثبت حديث زرياب أن نجابته لا تحتاج إلى دليل ، وفصاحة لسانه تمهد له سبيل الرفعة ، وثباته وثقته بنفسه تؤهلانه لتحقيق الكثير فى مستقبل الزمن ، لو لم يكن عبداً ، لهذا رأى الخليفة المهدى ببصيرته النفّاذة أن مثل هذا الغلام النجيب يستحق أن يأخذ فرصته فى الحياة ، لذا مَنَّ عليه بالعتق من العبودية ، ووهبه حريته ، فاستحسن الحاضرون جميعهم تصرف المهدى ، ما عدا الرجل المكلَّف بإعداد المجلس ، فقد نظر إلى زرياب بغضب شديد إذ ضاعت من يده فرصة معاقبته على تمايله وهو يقف فى مجلس الخليفة .

كان هناك رجل آخر رأى ما حدث بوجهة نظر مختلفة ، إنه إبراهيم الموصلى الموسيقار العبقرى ، رأى أن الخليفة كان يمكن أن يقتل زرياب لأنه تمايل وهو يقف فى مجلسه ، ورأى

أن حب زرياب للموسيقا قد جعله ينسى قَدْرَ المكان الموجود فيه ، ويلغى وجود كل من فى هذا المكان بما فيهم الخليفة نفسه، ومن كان لديه كل هذا الحب للموسيقا فلا بد أن يحقق فيها نجاحاً باهراً ، إذا وجد من يوفر له الرعاية الفنية ويتعهده بالتعليم والتدريب . لذلك أشار إبراهيم الموصلى إلى أحد غلمانه ، فأسرع بالاقتراب منه ، فهمس فى أذنه بأن يترقب زرياب ، فإذا رآه يخرج من قصر الخلافة ، فعليه أن يصطحبه إلى دار الموصلى لينتظر عودته ، لأنه يريده فى أمر مهم .

خرج زرياب من قصر الخلافة ، كان يحمل فى يده ثوبين هما كل ما يملكه من حطام الحياة ، لكن السعادة كانت تغمر قلبه . . . إنه حر . . . خلف العبودية وراء ظهره ، ولا يهمه إلى أين يذهب ، ولا من أين يأكل ، ولا أين ينام فبالرغم من أهمية هذه الأمور ، إلا أنها لم تكن تساوى شيئاً إذا قيست بحصوله على حريته ، إن حارة ضيقة من حارات بغداد أكثر رحابة من بساتين القصور التى يحظر عليه الخروج منها ، وإن الجوع أفضل ألف مرة من تناول الطعام الفاخر وهو فى زمرة العبيد ، وإن النوم فى الخلاء أكثر راحة من النوم فى قصر الخلافة وهو فى أسر العبودية .

لكن الخير كان ينتظر زرياب ، فكما كتب الله - عز

وجل- أن يبتاعه وكيل الخليفة ، لتدور الأيام فينال العتق والحرية ، كتب له أيضاً أن يسعى إبراهيم الموصلى لتعليمه أصول الموسيقا والغناء ، ليصير علماً سامياً من أعلام هذا الفن.

وقف زرياب على باب الخلافة ، كان الباب خلف ظهره ، والدنيا كلها أمامه ينظر إليها نظرة الإنسان الذى نال حريته على غير انتظار ، حينذاك اقترب منه غلام أكبر منه ببضع سنوات ، وأبلغه أن إبراهيم الموصلى يطلبه ، ويأمره بانتظاره فى داره ، لم يستفسر زرياب عن التفاصيل ، لم يسأل فيم يريده إبراهيم الموصلى؟؟ . . . لم يسأل أين تقع داره ؟ . . . لم يسأل هذا الغلام نفسه من يكون ؟ لم يسأله ما أدراه أن إبراهيم الموصلى يطلبه ؟ . . . فإن كل هذه التفاصيل لم تكن تعنى شيئاً بالنسبة له ، خاصة أنه لا يوجد أمامه مكان محدد يتجه إليه ، لذلك سار زرياب مع الغلام حتى وصلا إلى الدار ، فجلس ينتظر وصول إبراهيم الموصلى ، وبالرغم من أنه قد تأخر طويلاً فى العودة ، إلا أنه جاء أخيراً.

وصل إبراهيم الموصلى وجلس إلى زرياب ، الذى أحس بمشاعر مختلفة وهو فى رحاب أعظم موسيقار فى ذلك العصر، نظر إليه وهو يحس بالرهبة لأنه يجلس أمام هذا العبقرى ، نديم الخلفاء الذى لا يبارى فى العزف والغناء ،

ويحس أيضاً بالفخر لأنه يجلس إلى واحد من أعظم العباقرة في المجال الذى يحبه ، ويحس بالقلق والتوتر لأنه لا يدرى ما سوف تتمخض عنه هذه المقابلة .

قال إبراهيم الموصلى لزرياب :

لن أسألك عن مدى حبك للموسيقا ، فقد سمعت حديثك فى هذا الشأن إلى مولانا الخليفة محمد المهدى ، لكنى أريد أن أسألك هل عزفت على إحدى الآلات الموسيقية .

ضحك زرياب وقال :

يا سيدى إبراهيم الموصلى . . . أصلحك الله . . . من أين لمثلى أن يحصل على آلة موسيقية ؟ . . . كل ما هنالك أنى أدق بيدى على أى شىء أمامى بإيقاعات لا بأس بها .

مد إبراهيم يده إلى إحدى آلات الإيقاع القريبة منه ، وأعطاها لزرياب ، وقال له :

أسمعنى ما تعزفه من إيقاع .

أخذ زرياب الآلة وأخذ يعزف عليها ، وينتقل بمهارة من إيقاع إلى إيقاع آخر ، فاستحسن إبراهيم الموصلى منه ذلك .

قال زرياب :

أنا أغنّى أحياناً يا سيدى .

فطلب منه إبراهيم الموصلى أن يسمعه شيئاً مما يغنيه ،

وحينذاك حدثت المفاجأة، لقد أسمعه زرياب ما كان الموصلى قد غناه فى مجلس الخليفة فى ذلك اليوم ، ووجد له صوتاً بديعاً . فقرر أن يتبناه فنياً ، فيعلمه العزف على الآلات المختلفة ، ويدّربه تدريباً رفيع المستوى على الغناء ، فبدأت مسيرة تعليم زرياب ، الذى اجتهد فى التلقى ، حتى أجاد العزف على عدد كبير من الآلات فى مقدمتها آلة العود ، كما أجاد الغناء .

❋ ❋ ❋

عصره وأساتذته

بغـــداد

نشأ زرياب فى بغداد ، فرأى دنيا تموج بالحياة ، رأى حضارة إسلامية عربية شامخة ، ورأى مدنية متقدمة وعايش الترف والبذخ ، وحضر مجالس العلم ومجالس اللهو والمرح، ومجالس الرقص والغناء ، فقد كان النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى مرحلة مستقرة حضارياً ، وتقدمت عاصمة الخلافة ، وعرفت الذوق الرفيع ، لدرجة أنه كانت توجد فى سوقها محلات لبيع الأزهار، وهذا يدلنا على ما وصل إليه العرب من مدنية ورقة فى التعامل ، لدرجة أنهم كان يهدى بعضم البعض باقات الأزهار فى المناسبات السعيدة فى ذلك الزمان البعيد ، وتقدمت الصناعات ، وماج البلد بجنسيات متنوعة ، فالبعض جاء للتجارة ، والبعض للعلم ، والبعض للسياحة ، والبعض بحثاً عن عمل ، وانتشر تيار من اللهو والعبث ، وانتشر تيار من الزهد مواز له ، وزاد العمران وبرزت مظاهر المدنية الزاهرة فى القصور الكثيرة والحدائق والميادين ، والمساجد المزخرفة بأروع النقوش ، وانتشرت المدارس ودور الكتب التى كانت أندية يلتقى فيها العلماء والباحثون ، وشيدت المستشفيات الكبيرة الفاخرة ،

وبنيت المراصد الفلكية . وصار الزمان يشهد على انتعاش حركة الترجمة والتدوين والابتكار والتأليف فنشطت صناعة الكتابة وصار للخطاطين مكانة رفيعة ، وبلغت الدولة قمة المجد والحضارة ، فكثر الخير واتسعت أبواب الرزق أمام الناس ، وتأنق الخلق فى مظاهر الجمال ، وصارت بغداد - بحق - مركز العلوم والآداب والفنون فى العالم .

وبلغت الحالة الاجتماعية إلى درجة من الرقى تدعو إلى الاندهاش ، فقد انتشرت الرفاهية بصورة لا يتصورها إنسان ، وضمت المنتديات الأدبية نساء بجانب الرجال ، وصارت مجالس الأدب والثقافة من مظاهر الحياة الدائمة .

* *

تلاحقت الفتوحات الإسلامية ، وجُلب العبيد والجوارى بأعداد ضخمة من الأمم المغلوبة من مختلف جنسيات الأرض، وصار عددهم لا يُحصى فى بغداد فقل سعرهم ، وبالتالى صار متاحاً للفقراء - أيضاً - أن يمتلكوا العبيد والجوارى، وكانت بعض الجوارى مغنيات ، فكان الأثرياء يتنافسون فى البداية على امتلاك الجارية التى تُحْسِنُ الغناء ، ثم اتجهوا بعد ذلك اتجاهاً آخر ، إذا اشترى أحدهم جارية ووجدها حسنة الصوت جميلة المنظر ، كان يدفع بها إلى من يعلمها الغناء ، وحين تحسن العزف والغناء كان يزيّن بها مجلسه ، وصار هذا سلوكهم ، فانتشرت الجوارى المغنيات ، وامتلأت بغداد بهن ، وأصبح الرجل يشترى جارية أخرى ويدفع بها للجارية الأولى لتعلمها الغناء وعزف الموسيقا ، وهكذا انتشر الغناء على أوسع نطاق ، وصار ظاهرة موجودة فى كل مكان فى بغداد ، فى الطرقات والمنتديات وفى بيوت الأغنياء والفقراء ، وشغف الناس بالغناء حتى صار ملازماً لهم فى حياتهم ، بل وانتشرت « بيوت القيان » أى بيوت الجوارى المغنيات ، وهى أماكن كان يعدها النخاسون ، حيث تغنى فيها الجوارى ، ويدخل الناس للاستماع إليهن ، وإلى المغنّين أيضاً مقابل رسوم يدفعونها للنخاس . وكانت بعض

هذه الدور سيىء السمعة يناسب المعربدين ، لكن بعضها الآخر كان مقصوراً على الغناء والطرب ويناسب المتحفظين .

وعبر هذه الوفرة من المغنين والمغنيات لم يكن من السهل على مغنٍّ أو مغنية أن يحقق الشهرة والانتشار ، فلم تكن تتوفر الشهرة إلا للعبقرى الذى لا يباريه أحد، وفى هذه الظروف نشأ زرياب .

* *

الأساتذة

استطاع زرياب أن يبنى نفسه ثقافياً وفنياً ، فقد كان من حسن حظه أن علَّمه عباقرة الموسيقا فى عصره ، وأعظمهم إبراهيم الموصلى وولده إسحاق .

● **إبراهيم الموصلى** :

هو المعلم الأول لزرياب ، وكان إبراهيم الموصلى يعد مجالس المنادمة لموسى الهادى وهارون الرشيد فى حياة أبيهما، وكان يرعاهما ، فلما مات والدهما محمد المهدى ، صار موسى الهادى هو الخليفة ، فأشرقت شمس السعادة على إبراهيم الموصلى ، ويكفى أن نعلم أنه كافأه على غنائه فى يوم واحد بمائة وخمسين ألف دينار لندرك ما وصل إليه من عز وثراء ومكانة .

وكان الغناء مقصوراً على الجوارى السود وعلى مدى استعدادهن لتعلم الغناء، فلما جاء إبراهيم الموصلى علّم الجوارى البيض الحسان فن العزف والغناء ، وكان يشترى الجارية ببضع مئات من الدنانير ، فيعلمها العزف والغناء والحكايات اللطيفة ، فتجتمع لديها أطراف الجمال من براعة العزف وجمال الشدو وحلو الحديث وجمال المنظر ، فيبيعها بعشرات الآلاف من الدنانير ، وقد حققت له هذه التجارة ثراء عريضاً ، وصار الأغنياء يبعثون إليه بجواريهم كى يعلمهن الغناء مقابل أجر كبير ، لدرجة أنه تجمعت لديه - ذات مرة - ثمانون جارية . ولم يكن يعلمهن العزف والغناء فحسب ، بل كان يعلمهن أيضاً كتابة الأشعار الرقيقة على الآلات الموسيقية ، وتطريزها على الثياب ، بل ويعلمهن تنسيق الموائد وإعداد الطعام .

كان زرياب يتابع كل ذلك عند أستاذه إبراهيم الموصلى ، واستقر فى ذهنه ووجدانه ، لكنه كان مندفعاً إلى شىء واحد هو أن يجيد الغناء على يديه ، لأنه كان متأكداً من أن إبراهيم الموصلى عليم بكل أنواع الغناء وألوانه المختلفة ، وأنه عليم بأصول صياغة الألحان ، ولديه القدرة الفائقة على الابتكار الموسيقىّ ، وقد نجح زرياب فى أن يحصّل على يدىْ إبراهيم الموصلى كل ما لديه من علم .

● **إسحاق الموصلى :**

قام إسحاق الموصلى باستكمال تعليم زرياب ، حين تقدمت السن بإبراهيم الموصلى وغلب عليه المرض ، وكانت رسالته الكبرى هى تثقيف زرياب . فقد رأى أنه استكمل قدراته فى مجال الغناء والموسيقا ، ولكن تنقصه الثقافة .

كان إسحاق بن إبراهيم الموصلى رجلاً عميق العلم واسع المعرفة ، فقد كان أحد علماء الفقه الكبار ، ولم يمنعه من الانخراط فى سلك القضاء إلا تمسكه بالغناء ، فإنه لم يكن من المستساغ أن يعمل قاضياً فى الصباح ومطرباً فى المساء، وكان أيضاً شاعراً محسناً ، وأديباً بليغاً ، وكان نديماً لا يستغنى عنه الخلفاء ، لما امتاز به من رقة الحاشية وجمال الشمائل وكثرة الظرف ، وكان راوية متمكناً يروى أخبار القدماء والمعاصرين ، ويأتى بالنوادر اللطيفة ، وكان - بالإضافة إلى كل هذا - مغنياً خبيراً بأسرار الغناء ، ماهراً فى العزف ، بارعاً فى التلحين .

ولم يكن الغناء عند إسحاق الموصلى يعتمد على الصدفة والارتجال ، بل كان يرتكز إلى أسس فنية ، لذلك وضع إسحاق قواعد وأصولاً للغناء ، فضبط الأوزان وأحكم المقامات ، وتصرف فيها بدقة وحسن تنسيق ، فصار الغناء فناً يعتمد على أسس علمية وأصول ثابتة . بل وأكثر من ذلك ، لقد وضع مبادىء التدوين الموسيقى .

وقد وعى زرياب كل ذلك ، وصار مثل أستاذه يمتلك ثقافة عريضة ، ويتبحر فى فروع المعارف ، ويتعمق فى العلوم المختلفة ، وكان إسحاق الموصلى من أمهر العازفين على العود، فاستقى منه زرياب هذه المهارة ، بل وزاد عليها ، حتى صار أكثر مهارة فى العزف على العود من أستاذه ، لكنه أخفى عنه ذلك .

● مدرسة المجددين :

لم يقبع زرياب عند إسحاق الموصلى مكتفياً قانعاً بما يعلمه إياه ، بل كان يدور على مجالس الغناء فى بغداد ، يستمع ويستوعب ويتعلم ، ساتراً مهاراته ومخفياً قدراته لا يظهرها لأحد .

وبينما كان إبراهيم الموصلى وولده إسحاق من أنصار المدرسة القديمة شعراً وغناء وموسيقا ، كان هناك من يرون أنه لا يجب أن تقف مفردات الغناء عند أساليب المغنيين فى الجاهلية ، بل يجب تطويرها ، فظهرت مجموعة من المجددين يأتى فى مقدمتهم إبراهيم ابن المهدى أخو هارون الرشيد ، وكان إبراهيم ابن المهدى مطرباً موهوباً حسن الصوت ، يجيد العزف على الآلات الوترية والمزامير والدفوف ، وقد تزعم ثورة فنية تدعو إلى التجديد ، بعيداً عن التكلف والتعقيد ودعا إلى التخفيف فى الألحان ليسهل

أداؤها ، وتكون قريبة إلى النفس، ثم تمادى فى التجديد ، فاستحدث لوناً جديداً فى الموسيقا بمزج النغمات العربية والنغمات الفارسية ، وتبعه كثير من المؤيدين من كبار الموسيقيين والمغنيين ، أمثال مخارق ويحيى المكى وابن جامع .

وقد أفاد زرياب كثيراً من هذه المدرسة ، التى فتحت الباب للتجديد والتطوير فى ابتكار الألحان وفى تجميل الأداء وتحسينه بالبساطة لا بالتعقيد ، لكنه كان مؤمناً بضرورة التمكن من القديم حتى يمكن التطوير على أساس سليم لا يتزعزع .

● **منصور زلزل** :

من حسن حظ زرياب أنه أدرك مبتكراً عظيماً ، إنه «منصور زلزل » ، كان معاصراً لإبراهيم الموصلى ، وتمتع بمكانة فنية رفيعة ، وكان أشهر من عزف على العود ، لدرجة أن إسحاق الموصلى تردد عليه يومياً حتى مهر مثله فى العزف على العود وتفوق على معاصريه ، وقد لعب زلزل دوراً فى غاية الأهمية فى المسيرة الفنية لزرياب الذى كان صغيراً ، لكنه رأى زلزل يحطم قداسة الآلات الموسيقية، فلا قداسة لها ، ومن حق الموسيقىّ البارع أن يطورها ويجدد فيها ، وقد رأى زرياب ذلك بنفسه ، فمنصور زلزل قد ابتكر عوداً جديداً ، وسميت هذه العيدان « الشبابيط » نسبة إلى نوع من السمك كانت تشبهه من حيث الشكل، دقيق الذيل ، عريض

الوسط، ليّن الملمس ، صغير الرأس . وزلزل هو الذى ضبط مواقع النغم على دساتين العود (والدستان هو موضع عفق الإصبع على الوتر) واستحدث فى ذلك مواضع جديدة ، نُسبت إليه ، فسميت إحدى هذه النغمات «وسطى زلزل » بل وابتكر مقاماً جديداً أضيف إلى المقامات العربية ، لم يزل يستعمل فى العراق حتى الآن هو « المقام المنصورى » نسبة إلى اسمه : منصور زلزل .

وقد أفاد زرياب كثيراً من ابتكارات منصور زلزل ، فقد كانت منطلقاً لابتكاراته هو ، فأقدم على تطوير الآلات الموسيقية وابتكارها غير هيّاب .

* * *

المفاجأة

كانت زوجة زرياب قد حذرته من غيرة إسحاق الموصلى إذا اكتشف أنه فاقه فى العزف والغناء ، لذلك أخفى زرياب عن أستاذه ما حققه من براعة فى الألحان وإجادة الغناء . وذات يوم طلب هارون الرشيد من إسحاق الموصلى أن يحضر له مغنياً جديداً على سبيل التنويع ، فراح إسحاق يمتدح نبوغ زرياب ومقدرته فى الغناء وثقافته الرفيعة ، فأمر هارون الرشيد باستدعاء زرياب .

● عند هارون الرشيد :

وصل زرياب إلى مجلس هارون الرشيد ، الذى تحدث إليه وامتحن معارفه فوجده حاضر الذهن فصيح العبارة ، حكيم الأفكار ، سريع البديهة ، فأعجبه ذلك ، وسأله عن شأنه فى الغناء ، فقال زرياب :

(أُحْسِنُ منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه : مما لا يحسنونه ، ولا يَحْسُنُ إلا عندك ولا يُدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك) .

فأمر هارون الرشيد بإحضار عود إسحاق الموصلى لكن زرياب قال له :

(لى عود نحته بيدى ، وأرهفته بإحكامى ، ولا أرتضى غيره) .

فأمر الرشيد بإحضار ذلك العود ، فلما أُحضر نظر إليه فوجده لا يختلف فى شىء عن عود إسحاق الموصلى ، فسأله الرشيد :

- ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟؟

فأجاب زرياب :

- إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى .

قال الرشيد :

- ما أراهما إلا واحداً .

أى أنهما متماثلان لا اختلاف بينهما .

فقال زرياب :

صدقت يا مولاى ، ولا يؤدى النظر غير هذا ، ولكن عودى - وإن كان فى قدر حجم عوده ومن جنس خشبه - فهو ثلث عوده من حيث الوزن ، وأوتارى من حرير - لم يغسل بماء سخن - يكسبها أنوثة ورخاوة . وهذان الوتران اللذان يُسميان التمّ والمثلث ، اتخذتهما من مصران شبل ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها .

أعجب هارون الرشيد ببراعة وصفه ، وأمره بالغناء ، فانطلق يغنى :

يا أيهـــا الملك الميمــون طائـــــره

هارون . . راح إليك الناس وابتكروا

استولى الطرب على الخليفة هارون الرشيد ، واشتد إعجابه بزرياب ، وأمر إسحاق الموصلى بأن يعتنى بزرياب حتى يتفرغ للاهتمام به .

* *

المحنة الأولى

تسبب زرياب فى إثارة أستاذه إلى أقصى درجة ، حين فوجىء فى مجلس هارون الرشيد بما وصل إليه من مستوى فى الغناء بلغ ذروة الإبداع . وبلغ الغضب مداه عند إسحاق الموصلى لأن زرياب أخفى قدراته الغنائية عنه .

وحانت لحظة المواجهة ، فالحسد قد دب فى قلب إسحاق الموصلى والحقد ملأ قلبه ، والغضب ثار فى جوانحه ، فلما خلا بزرياب قال له :

« إن الحسد أقدم الأمراض ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها ، وقد مكرتَ بى فيما

انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدتُ منفعتك فإذا بى قد أتيتُ نفسى من مكمنها بإدنائك من أمير المؤمنين ، وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ، حتى لو كنت ولدى . ولولا رعايتى وحفاظى على ذمة تربيتك لما تنازلتُ عن قتلك وليكن فى ذلك ما يكون ، فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً ، بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة، وأنهضك بذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم ها هنا فى بغداد على كرهى ورغمى ، مُسْتَهْدَفاً لسهامى ، فإنى لا أُبْقِى عليك ولا أَدَعُ اغتيالك باذلاً فى ذلك بدنى ومالى . . . فاقض قضاءك » .

نظر زرياب إلى أستاذه ، كان إسحاق الموصلى معجزة عصره في الألحان ، يتهيب أداءها أعلام المطربين ، وكان عبقرى الغناء الذى لا يُبَارَى ، ها هو ذا يخشى أن يؤدى زرياب إلى سقوط منزلته ، لقد زادت ثقة زرياب بنفسه وبفنه. . . لكنه - فى الوقت نفسه - كان يدرك أن أستاذه صادق فى تهديده ووعيده ، وأنه لن يتنازل عن قتله إذا اضطر لذلك .

كان الموقف دقيقاً . . . هل يرتحل زرياب بزوجته وأطفاله

عبر المجهول ، لا يدرى ما سيحدث له ؟ . . . أم يظل فى بغداد لا يرتحل ويتحدى أستاذه ، فينتهى الأمر باغتياله ، فتصير زوجته أرملة وأطفاله أيتاماً ؟ .

انتظر إسحاق الموصلى الجواب .

وتحركت تروس التفكير بقوة فى عقل زرياب .

واتخذ قراره . . . سوف يرحل عن بغداد .

اتفق إسحاق الموصلى على أن يكون رحيله سِراً ، وأن يبتعد عن كل الأراضى الواقعة تحت حكم الخليفة هارون الرشيد ، وكان ذلك فى حُدود سنة (١٩٠) هجرية .

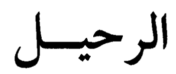
حين طلب الرشيد رؤية زرياب بعد فترة قال له إسحاق الموصلى :

« ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ . . . ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فلا يرى فى الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأتْ عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه ، مستخفياً عنى ، وقد صنع الله - تعالى- فى ذلك خيراً لأمير المؤمنين ، لأنه كان به طرف من الجنون يغشاه ويفرط خبطه، فيفزع من رآه » .

فصدّق هارون الرشيد قول إسحاق الموصلى ، وقال : «على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كبير » .

كان من المستحيل أن تتسع بغداد لإسحاق الموصلى وزرياب معاً ، وهكذا طُويت صفحة العراق من تاريخ الموسيقار العبقرى ، واضطر إلى الابتعاد عن عاصمة الخلافة ، حيث لا شهرة إلا من خلالها . لكنه كان واثقاً بقدراته الفنية، مؤمناً بأن الإنسان القوى يستطيع أن يحقق النجاح إذا صمم وثابر واجتهد وأخلص فى عمله ، وكان مؤمناً بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لذلك ارتحل زرياب عن بغداد وهو على يقين من أن الغد أكثر إشراقاً من اليوم ، وأن الدنيا سوف تبتسم له يوماً ما .

❋ ❋ ❋


الرحيــل

خرج زرياب سراً من بغداد ، فقد علم أن إسحاق الموصلى قد أبلغ هارون الرشيد أن زرياب غضب من الخليفة لأن جائزته قد تأخرت عليه ، ولأنه لم يستدعه فى وقت قريب ، وقيل له إن الرشيد قد نقم عليه لذلك ، وهكذا وضعه إسحاق الموصلى فى موقف لا يحسد عليه ، وصار البقاء فى بغداد يمثل مغامرة غير محمودة العواقب ، وهكذا اصطحب زرياب زوجته وأولاده وخادمه ، وانطلق فى رحلة طويلة .

كان قد سمع من المسافرين عن جمال بلاد الأندلس ، وعلم أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى قد هرب من دمشق ، وأنشأ دولة أموية فى بلاد الأندلس ، وكان عبد الرحمن يسمى عبد الرحمن الداخل ، ويسمى صقر قريش، وهو شخصية فريدة فى التاريخ أنشأ دولته فى سنة (١٣٩) هجرية / (٧٥٧) ميلادية ، وسمع زرياب أن خلفاء عبد الرحمن قد ثبتوا دعائم دولتهم ، وهم محبون للعلم والفن والأدب ، مقدّرون للجمال فى كل شىء .

سمع زرياب أيضاً عن مدينة القيروان فى تونس التى يحكمها ملوك الأغالبة وليس للخليفة سلطان عليهم من الناحية السياسية ، وكل صلتهم بالدولة العباسية لا تتعدى الناحية الدينية ، حيث يُدعى للخليفة على منابر الجوامع فى

صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وسمع عن جمال القيروان أيضاً ، وعن تشجيع ملوكها للآداب والفنون .

على أى حال قرر زرياب التوجه إلى القيروان ، بصفتها أقرب من بلاد الأندلس ، فإذا طاب له المقام فيها استقر بها ، وإلا واصل طريقه حتى يصل إلى الأندلس .

* *

فى القيروان

كانت الرحلة طويلة جداً ، خرج زرياب بأسرته وخادمه من بغداد إلى بلاد الشام ، ثم إلى مصر ، ثم اجتاز صحراء ليبيا ، حتى وصل إلى تونس ، ودخل مدينة القيروان بعد أن لاقى أهوالاً فى الطريق ، فعبر ودياناً وسهولاً وأنهاراً وصحارى ، وعانى أطفاله الصغار من طول الرحلة ، ومكث فى مصر فترة حتى يداوى أحدهم من مرض أصابه ، والتحق بقوافل ، وأقلته مراكب ، وقاسى كثيراً، لذلك كان وصوله - أخيراً - إلى القيروان مصدر سعادة للجميع .

كان ملوك الأغالبة يحكمون إفريقية ، وكانت القيروان عاصمة ملكهم ، وقد بدأ ظهورهم على الساحة السياسية متمثلاً فى الأغلب بن سالم ، وهو من جند مصر الذين دخلوا إفريقية مع قوات محمد بن الأشعث فى خلافة أبى جعفر المنصور وولاه إفريقية سنة (١٤٨) هجرية ، لكنه قتل

بعد ذلك بعامين وتعرضت الولاية لاضطرابات كثيرة خلال أربع وثلاثين سنة حتى عهد هارون الرشيد بولاية إفريقية إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم ، الذى أسس دولة الأغالبة ، فلما توفى سنة (١٩٦) هجرية عهد بالإمارة لولده عبد الله ، وتوفى عبد الله سنة (٢٠١) هجرية ، ليخلفه أخوه زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب وبذلك صار حكم إفريقية وراثياً للأغالبة .

وصل زرياب إلى القيروان فى عهد إبراهيم بن الأغلب فاتخذ لنفسه ولأسرته الصغيرة داراً ، وكانت القيروان من قبل لا تُعرف إلا بالزهد والصلاح والتدين ، ثم بدأ يظهر فيها بعض المغنيين على استحياء ، فلما نزلها زرياب تجمع حوله بعض هواة الفن ومحبيه ، وشيئاً فشيئاً عُرف فى القيروان ، وامتدت شهرته إلى ولاية إفريقية كلها ، لكنه لم يَحْظَ بمكانته التى يرجوها إلا حينما ولى الملك زيادة الله فقد كان أخوه ووالده تشغلهما الحروب المتواصلة ، أما هو فكان محباً للغناء ومجالس الطرب ، وهكذا علا نجم زرياب ، وقربه الملك ، ووهبه العطايا والهبات والأموال الجزيلة ، وانغمس كثير من الناس فى الملاهى ، وخصصت محلات عامة للغناء ، لدرجة أن القيروان انقسمت إلى حَيَّيْن متناقضين ، أحدهما حى الزهاد ، والآخر سمى الحى الزريابى نسبة إلى زرياب ، وهو حى الغناء والرقص واللهو ، تجمع فيه الفنانون وجعلوا من

زرياب زعيماً لهم ، ومن أشهر هؤلاء الفنانين مؤنس المغنى ، الذى كان أحد تلاميذ زرياب .

كان زرياب يحصل على عدة ألوف من الدنانير جائزة لأغنية يغنيها بين يدى الملك زيادة الله بن الأغلب ، فعاش هو وأسرته حياة مرفهة مطمئنة ، وكان يتمتع بمكانة رفيعة لدى الملك ، كما كانت له مكانة اجتماعية عالية فى نصف القيروان على الأقل .

وتحدثنا الأخبار التى وردت فى كتب التاريخ أن الملك زيادة الله بن الأغلب كان حاد المزاج ، سريع التقلب ، ربما تطاول على الخليفة نفسه ، وربما رجع عن موقفه الحاد بعد ساعات قليلة ، وكان زرياب يعلم فى الملك هذه الصفات لذلك تحاشى الصدام معه طوال السنوات التى عامله فيها .

وكان نجم زرياب يعلو ، ويزداد تألقاً ، وصار واحداً من أشهر الرجال فى إفريقية ، وصار من الأثرياء الكبار فى القيروان ، ولم يكن يستمع أحد إلى ألحانه إلا ويطرب لها ، فامتلأ قلب زرياب بغرور الفنان المبدع ، وتخطى تلك المسافة الصغيرة التى تفصل بين الثقة بالنفس والغرور ولم يعد يهتز لدخوله إلى مجلس الملك ، بل لقد شعر فى بعض الأحيان أنه أكثر شعبية من الملك زيادة الله بن الأغلب نفسه ، لذلك

كان لا بد من حدوث الصدام بينهما فى لحظة ما ، وقد حانت تلك اللحظة فى سنة (٢٠٦) هجرية .

* *

المحنة الثانية

ما من ناجح إلا وله أعداء ، ويحيك الحاقدون الدسائس حوله ، ولم ينجُ زرياب من حسد الحاسدين وحقد الحاقدين، لقد ظلوا يتحدثون إلى الملك زيادة الله بن الأغلب ، ويصوّرون له غرور زرياب ويضخمونه ، ويقولون له إنه لم يعد يضرب حساباً لأحد ، وإنه صار يسىء معاملة الناس بعد أن وهبه الملك تلك المكانة الرفيعة ، ومن ناحية أخرى كان رجال الدين يقودون ضده حملة شعواء .

ودخل زرياب إلى مجلس الملك مزهواً بنفسه ، يتخايل فى مشيته ، وهو يشعر أنه أفضل من يسيرعلى هذه الأرض ، لما يتمتع به من مواهب لم يحظ بها أحدٌ غيره من البشر ، نظر إليه زيادة الله بن الأغلب ، وقرأ كل ذلك فى ملامح وجهه، فلما جلس زرياب وأمسك بعوده كى يغنى ، استفزه الملك بتحقيره للونه الأسود ، وقال له :

غَنِّ يا ابن الغرابية .

نسبة إلى لون الغراب الأسود ، فاستثارت هذه الكلمات زرياب ، وأخذ يضرب على عوده نغمات متفرقة ، باحثاً فى

ذاكرته عن كلمات مناسبة يتغنى بها فتكون رداً على إهانة الملك له ، وخطرت بباله أنسب الكلمات من مقطوعة لعنترة ابن شداد يقول فيها :

فَإِنْ تَـكُ أُمِّى غُرَابِيَّـــةً   مِنَ ابْنَاءِ حَامٍ بِهَـا عِبْتَنِى
فَإِنِّى لَطِيفٌ بِبِيضِ الظُّبَـا   وَسُمْـرِ العَوَالِى إِذَا جِئْتَنِى
وَلَوْلا فِرَارُكَ يَـوْمَ الوَغَى   لَقُدْتُكَ فِى الحَرْبِ أَوْ قُدْتَنِى

وانطلق زرياب يتغنى بهذه الأبيات ، وكانت ذات وقع عنيف على الملك زيادة الله بن الأغلب ، فهو يقول فيها إن كانت أمه سوداء البشرة فهو لطيف بالسيوف البيض والرماح السمر ، وإنه لولا فرارك يوم الحرب لكان أحدنا قاتلاً والآخر قتيلاً .

ثار الملك حين سمع ذلك ولم تسكن ثورة غضبه ، وأمر بأن يجلد زرياب فضرب بالسياط ، ولم يكتف الملك بذلك بل قال له :

إن وجدتك فى أى مكان من بلادى بعد ثلاثة أيام : ضربت عنقك .

كانت محنة أخرى تعرض لها زرياب ، إذ وجد نفسه مضطراً للرحيل عن القيروان بعد أن استقر بها خمسة عشر عاماً ، حقق خلالها مكانة رفيعة وثراءً ضخماً ، وكما خرج

طريداً من بغداد ، كان عليه أن يخرج طريداً أيضاً من القيروان .

من الصعب وصف الحالة التى عاد بها زرياب إلى داره فى ذلك اليوم ، فهذا العبقرى المتفرد ، ذو المكانة السامية ، الذى اعتاد على حياة الرفاهة والترف ، قد ضُرب بالسياط ، وأمره صديقه الملك زيادة الله بن الأغلب بالخروج من بلاده خلال ثلاثة أيام وإلا قتله .

لم يدر كيف يبلغ زوجته بالخبر ، كان يتوقع أن ينزل عليها كالصاعقة ، لكنه قص عليها ما حدث على أى حال ، ففوجىء بها تقول له :

يا زرياب . . . أنت رجل موهوب ، يرحب بك أى ملك من الملوك ، فلا تحزن إذا طردك زيادة الله بن الأغلب من ممالكه ، فأنت لم تخسر شيئاً ، كل ما هنالك أنك سوف تستبدل ملكاً بملك ، وبلاداً ببلاد ، وإنما الخاسر هو الذى ستهجره ، ومن يدرى . . . ربما حدث ذلك لأن الله - عز وجل - قد ادخر لك خيراً كثيراً عند ناسٍ آخرين ، وفى بلاد أخرى .

حينذاك سكنت نفس زرياب قليلاً ، وبعد ساعات وجد من يدق بابه ، فحين فتح الباب وجد رجلاً عليه هيئة السفر يقول له :

- أنا منصور المغنى من أهل قرطبة ببلاد الأندلس ، وقد بعث بى الأمير الحكم الأول بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، يدعوك إلى الحضور إلى بلاد قرطبة، حيث أعد لك كل ما تتمنى .

حينذاك أحس زرياب أن زوجته كانت محقة فيما قالته ، وها هى ذى الأبواب قد فتحت له على مصاريعها .

* *

الطريق إلى قرطبة

خرج زرياب من القيروان فى أواخر سنة (٢٠٦) هجرية / (٨٢١) ميلادية وبصحبته أسرته وخادمه ، ومنصور المغنّى ، رسول الأمير الحكم الأموى أمير بلاد الأندلس ، فانطلقوا على ظهور الدواب ، وساروا بمحاذاة شاطىء البحر المتوسط، فعبروا الجزائر والمغرب ، حتى وصلوا إلى ميناء « سويتا » فى شمال بلاد المغرب ، فعبروا « بحر الزقاق » حتى وصلوا إلى جبل طارق . وما كادوا ينزلون إلى البر فى بلاد الأندلس ، حتى سمعوا خبراً جعل زرياب يندب سوء حظه ويغرق فى بحر من الهم ، لقد توفى الأمير الحكم ، الذى أرسل إليه يستدعيه.

كان الحكم هو ثالث الحكام فى الدولة الأموية بالأندلس ، فكان أول الحكام هو عبد الرحمن الداخل صقر قريش الذى

حكم من سنة (١٣٨) هجرية إلى سنة (١٧٢) هجرية ، ثم حكم من بعده ولده هشام من سنة (١٧٢) هجرية إلى سنة (١٨٠) هجرية . ثم جاء ولده الحكم فولى الإمارة من سنة (١٨٠) هجرية . إلى سنة (٢٠٦) هجرية . حيث تسلم مقاليد الإمارة ولده عبد الرحمن ، الذى عرف فى التاريخ باسم عبد الرحمن الأوسط ، وقد ولى الإمارة حتى سنة (٢٣٨) هجرية ، وكان عهده من أزهى عصور الأندلس ، إذ تقدمت فيه العلوم والآداب والفنون تقدماً كبيراً .

حين علم زرياب أن الحكم بن هشام قد توفى ، قرر ركوب البحر والذهاب إلى أى مكان . . . ولكن لم يكن يرى مكاناً يستطيع الذهاب إليه ، فهو مطرود من إفريقية ومن بغداد وما يتبعهما من بلاد . . . فإلى أين يذهب ؟ . . . إلى بلاد الصين ؟ وحتى لو أراد ذلك من ذا الذى يقدر على مثل هذا السفر الطويل؟ . . . لكنه - على أى حال - لن يمكث فى بلاد الأندلس ، فلا بد أن الأمير عبد الرحمن سوف يتشاءم بقدومه عليه .

لكنّ منصوراً المغنّى هّدأ من روعه ، وأبلغه أن الأمير عبد الرحمن أيضاً قد سمع عنه ، وكان يطلبه . لكن زرياب لم يقتنع بكلامه ، وحينذاك قال له منصور:

عندى اقتراح . . . سوف نقيم ها هنا حيث نحن ،

وأبعث إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم أعرفه أنك وصلت إلى بلاد الأندلس فإذا جاء رده مشجِّعاً ومرحِّباً واصلنا الرحلة إلى قرطبة ، وإذا وجدت فى رده فتوراً مضيت إلى حيث تشاء.

حينذاك تدخلت زوجة زرياب فى الحديث ، وأيدت رأى منصور ، وتحمست لاقتراحه وقالت لزوجها :

نحن معك يا زرياب ، حتى لو مضيت بنا إلى آخر الدنيا، ولن نقبل أن ندفع بك إلى مكان لا يقدّرك فيه حاكمه ، وأنا أتحمس لاقتراح منصور ، فلا تتعجل السفر عائداً ، ولننتظر رد الأمير عبد الرحمن ، فمن يدرى ؟؟ ... ألا يجوز أن تجد لديه ترحيباً أكثر مما كان يمكن أن يقدمه لك والده ؟ .

كان رأيها منطقياً ووجيهاً ، فأقاموا حيث هم ، وبعث منصور إلى الأمير عبد الرحمن يبلغه بوصولهم ... وانتظروا حتى جاء الرد فى رسالة مكتوبة وممهورة بتوقيع أمير الأندلس عبد الرحمن نفسه ، يذكر فيها لزرياب سروره بمقدمه وتشوقه لرؤيته ، ويبلغه أنه كتب إلى الولاة والأمراء فى بلدان الأندلس يوصيهم بإكرامه وأن يحسنوا استقباله ، ويوفروا له سبل الراحة والأمان ، وأن يصحبه موكب من كل بلد ينزله ، فيوصله إلى البلد الذى يليه وهكذا ... حتى يصل معززاً مكرماً إلى قرطبة .

حينذاك واصل زرياب مسيرة السفر وهو راضٍ ، فلما اقترب من قرطبة وجد غلمان الأمير فى انتظاره - ومن معه - بالجياد المُطَهَّمَة ، فأسعده ذلك ومضى فاقترب أكثر ، فلما صارت بينه وبين أسوار قرطبة مسافة صغيرة فوجىء بالأمير عبد الرحمن قد خرج بنفسه ليستقبله ، فاطمأنت نفسه وأحس بمدى تقدير الأمير له ، لقد استقبلته قرطبة بأسمى آيات الترحيب ، فاستبشر خيراً بقدومه إليها ، فلما دخل إلى البلد كانت فى انتظاره مفاجأة طيبة ، فحين علم الأمير عبد الرحمن بوصوله إلى بلاد الأندلس أمر بإعداد وتجهيز قصر جميل ليكون أول الهدايا التى يتسلمها بمجرد وصوله إلى قرطبة .

* * *

المجد فى قرطبة

لقى زرياب حفاوة وترحيباً بمجرد وصوله إلى قرطبة ، فقد رأى أمير بلاد الأندلس يخرج إلى ظاهر البلد ليكون فى استقباله ، ووجد قصراً فاخراً أُعدَّ له قبل وصوله ، وقد نزل فى قصره ثلاثة أيام استراح فيها من إجهاد السفر ، جاءه رسول من قِبَلِ الأمير فى اليوم الثالث منها فأبلغه بما قرره الأمير بشأنه ، وأعلمه أنه قد أمر له براتب شهرى قدره مائتا دينار ، وكان هذا المبلغ كافياً لأن يجعل زرياب وأسرته يعيشون معيشة الأمراء لكن الأمير عبد الرحمن بن الحكم لم يكتف بذلك بل أمر براتب شهرى قدره عشرون ديناراً لأولاد زرياب الأربعة عبد الرحمن وجعفر وعبد الله ويحيى . وأمر لزرياب أيضاً بمنحة قدرها ثلاثة آلاف دينار فى الأعياد ، وأمر بأن يمنح من هيئة التغذية العامة ثلاثمائة مدى ، حيث المدى مكيال يسع تسعة عشر صاعاً ، والصاع حوالى اثنين من الكيلو جرامات على أن يكون ثلث هذه الكمية قمحاً ، وثلثاها شعيراً أى يُمنح (٣٨٠٠) كيلو جراماً تقريباً من القمح وضعفها من الشعير . شكر زرياب الرجل وطلب منه توصيل شكره الجزيل للأمير .

قال الرجل :

انتظر يا زرياب . . . . . فلم يزل هناك ما أمر لك به مولاى الأمير عبد الرحمن. . . تفضل هذه الصكوك .

تعجب زرياب وسأل عن هذه الصكوك التى هى عقود ملكية . . . فقال له :

لقد وهبك الأمير عبد الرحمن من الديار والبساتين والضياع ما يساوى أربعين ألف دينار .

شعر زرياب بالأمان والاطمئنان ، وأحس بالتقدير والعرفان للأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموى . وفى اليوم الرابع من وصوله إلى قرطبة استدعاه الأمير إلى مجلسه بعد أن أرضاه ، وحقق له الأمن والأمان والحياة المرفهة .

تحدث زرياب فذكر مواقف الملوك وأحوال الخلفاء ونوادر العلماء وأخبار الأدباء، فكان بحراً من الثقافة والظرف ، فلما غنى أطرب الجميع ، وزاد إعجاب الأمير عبد الرحمن به فزاد فى تكريمه ، واختصه بمجالسته على مائدة طعامه ، وجعل له باباً خاصاً يدخل إليه منه إذا أراد الاستماع لغنائه لا يدخل منه غيره ، وصارت لزرياب مكانة رفيعة لم يبلغها سواه فى دولة عبد الرحمن الأوسط .

* * *

زرياب الفنان

أكاديمية الفنون

ظل زرياب يختزن فى ذاكرته منظر الجوارى الثمانين اللائى كان يعلمهن أستاذه إبراهيم الموصلى ، فاتخذها رسالة وعملاً فى نفس الوقت ، وقرر أن يسير على هدى أستاذه ، ولكن بطريقته الخاصة ، لقد رأى أن العلوم المختلفة تدرس فى مدارس ، ينتظم فيها طلاب العلم والمعلمِّين ، وما دام هناك من يطلبون تَعَلُّمَ الغناء فلماذا لا يبنى لهم مدرسة ينتظمون فى فصولها ليتعلموا الموسيقا والغناء وصناعة الآلات الموسيقية؟؟. . . بل ويتعلموا أيضاً الأناقة فى كل مظاهر الحياة من إعداد الموائد ومجالس الشراب والثياب واستخدام العطور، ويتعلموا أيضاً الأخبار والنوادر التى تجعلهم ندماء يستحب الناس أن يستمعوا لهم ؟؟ .

فكر زرياب فى كل ذلك ، وكانت الظروف مواتية ، فأنشأ فى قرطبة أول أكاديمية للفنون فى العالم ، وتقدم للالتحاق بها المئات من الجوارى ومن الشباب، فوضع زرياب أسساً لاختيار الأصوات ، ووضع قواعد جديدة لتلقين الألحان ، ووضع مناهج لتعليم الطلاب ، بحيث يصير الطالب موسيقياً بارعاً ، ومطرباً جيداً ، يعرف كيف يتأنق فى المأكل والمشرب والملبس،

فيكون طيب المعاشرة ، لطيف المؤانسة ، له حضور ظريف فى كل مجلس يتواجد به .

وتخرجت أجيال من المغنين الظرفاء ، والمغنيات اللطيفات فى أكاديمية زرياب حققوا أمجاداً موسيقية مشهود لها .

* *

اختبار الأصوات وتدريبها

كان زرياب خبيراً بالأصوات خبرة تامة ، لذلك كان يمتحن صوت من أراد الالتحاق بأكاديميته ، فكان يجعل الطالب يجلس على كرسى صغير ويغنى قائلاً «آه » ويرددها ممدودة على درجات متفاوتة من الغلظ إلى الحدّة ، فإذا وجد صوته بها صافياً ، لا يعتريه فيها قصر النفس أو نشاز الصوت قرر إلحاق ذلك المتقدم بالدراسة بالأكاديمية .

بعد ذلك كان زرياب يقسّم الطلاب إلى مجموعات تبعاً لاختلاف أصواتهم . فإذا كان الطالب متقارب الأضراس ، أو كان معتاداً على زمّ أسنانه عند النطق أمره بوضع قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع فى فمه لعدة ليالٍ ، حتى ينفرج فَكَّاه ، وإذا كان ليّن الصوت أمره بأن يشد عمامة على بطنه ، حتى لا يجد الصوت متسعاً فى الخروج من الجوف إلى الفم، فيصير قوياً .

* *

تلقين الألحان وأداؤها

ابتكر زرياب منهجاً جديداً يعين الطلاب على حفظ الألحان، فقد كان المتبع قبله أن يظل المغنى يكرر اللحن حتى يحفظ ما أراد أداءه ، فلما افتتح زرياب تلك الأكاديمية صار يعلّم الطلاب أداء الألحان على ثلاث مراحل متتابعة .

المرحلة الأولى : توضيح الإيقاع فى الشعر المُغَنَّى ، ثم يجعل الطالب ينقر على الدف ، كى يدرك زمن الإيقاع وضبط الحركات .

المرحلة الثانية : دراسة اللحن فى شكله الأساسى .

المرحلة الثالثة : ترجيع الصوت مع استخدام حلية الغناء ، وإظهار العواطف .

وهذه الطريقة فى تعليم الغناء هى طريقة ابتكرها زرياب ، وظل المعلّمون - من بعده - يستخدمونها فى الشرق والغرب، عصوراً طويلة .

أما أداء الغناء فوضع له نهجاً سار عليه المغنون فى عصره وفى العصور التالية، فكان يفتتح الغناء بالنشيد ، ثم يليه الغناء بالبسيط ، وبعد ذلك يختم غناءه بالأهزاج والموسيقى الخفيفة .

وقد أفاده فى وضع هذا النهج للغناء تمكنه من أساليب

المدرسة التقليدية فى الألحان التى تعمق فيها على أيدى إبراهيم الموصلى وولده إسحاق ، وكذلك إبداعه فى ألحان المدرسة الجديدة التى قادها إبراهيم بن المهدى .

* *

طلاب الأكاديمية

أقبل الطلاب يقصدون التعلم فى أكاديمية زرياب من كل مكان ، من الأندلس ومن خارجها ، ومن العرب ومن غير العرب ، حتى أنه استقدم من بلاد الحجاز المغنيات البارعات حتى يطور فنّهن الغنائى بما يحقق أزدهاراً للغناء .

وكان الطلاب يدرسون أنواع العزف على اختلافها ، ويدرسون الغناء بأسلوبيه التقليدى والمتطور ، ويدرسون أساليب التلحين والمقامات الموسيقية المختلفة ، كما كانوا يدرسون الشعر بكل أوزانه ، ويدرسون الرقص . . ثم تأتى دراسة الأناقة فى الملبس والمأكل والمشرب فى المرحلة الأخيرة من التعليم ، وقد كان زرياب هو رئيس هذه الأكاديمية الفنية، وكان الأساتذة الذين يساعدونه هم أولاده وبناته وجواريه .

وقد أثر غناء زرياب فى المجتمع الأندلسى على امتداد الجزيرة كلها ، فإن الجواري اللائى تخرجن من الأكاديمية قد اتجه كثير منهن إلى تعليم الغناء للنساء الحرائر من أهل

الأندلس ، فانتشرت مجالس الغناء فى أرجاء قرطبة ، ويكفى أن نعلم أنه فى مجلس واحد من تلك المجالس قد شارك مائتان من المغنين والمغنيات يعزفون على مختلف الآلات سواء كانت آلات وترية أو إيقاعية أو آلات نفخ . وهذا يدلنا على مدى الانتشار الذى وصلت إليه فنون الموسيقا والغناء ببلاد الأندلس فى عصر زرياب ، وامتزجت مجالس الغناء والطرب والرقص مع مجالس الأدب والشعر ، فكان المجلس يشبه الحفل الذى يمتلىء بالغناء والعزف والرقص وإنشاد القصائد الشعرية ، وكانت هذه المجالس مما يسعى إليه أهل الأندلس رجالاً ونساءً . وقد وصف الشاعر ابن حمديس الصقلى أحد هذه المجالس فقال :

وعدنا إلى هالـةٍ أطلعـت   على قُضُبِ البـان أقمارَهَا
يرى ملك اللهو فيها الهموم   تثـور : فيقتـل ثُوَّارَهَـا
وقد سكَّنت حركاتِ الأسى   قيـانٌ تحـرّك أوتارهـا
فهذى تعانـق لى عودها   وتلـك تقبّل مزمارهـا
وراقصـة لقطت رجلُهـا   حساب يـدٍ نقّرت طارها

* *

الآلات الموسيقية

كانت الموسيقا تسرى فى دماء زرياب ، وكانت النغمات هى المفردات التى يتعامل بها فى دنيا الإبداع ، لذلك لم يكن مستغرباً منه أن يعشق الآلات التى تنطق بالموسيقا بين يديه ، ولم يكن مستغرباً أن يحب أن يراها فى أحسن صورة، وظلت راسخة فى أعماقه محاولات الموسيقىّ القديم منصور زلزل فى مجال تطوير العود . لقد تضافرت كل هذه العوامل فجعلت زرياب يمد يده إلى الآلات الموسيقية بالتطوير والتعديل ، فبدأ بآلة العود ، فأضاف إليها وتراً خامساً بعد أن كانت أوتارها أربعة فقط .

وقد أيقن العرب أن الجسد يتكون من أربع طبائع : هى الصفراء والدم والسوداء والبلغم ، لذلك جعلوا للعود أربعة أوتار أحدها أصفر وسمى الزير وهو أكثر الأوتار حدةً ، والثانى جعلوه أحمر اللون وسمى المثنى ، والثالث أسود اللون وسمى البم ، والرابع تركوه أبيض اللون وسمى المثلث.

وأراد زرياب ألا يخالف هذا التصور ، لكنه قال إن هذه الأوتار تقابل طبائع الجسد وأخلاطه ، وهي أربع كما ذكر العلماء . . . فأين موقع النفس هنا؟؟. . . ألا يجب أن يكون هناك وتر يعبر عن الروح ليكتمل تعبير الأوتار عن الإنسان جسداً وروحاً ؟؟ .

وهكذا أضاف زرياب وتراً خامساً إلى العود وجعل لونه أحمر أيضاً وأسماه «الوتر الأوسط الدموى » على أساس أن الروح تسرى فى دم الإنسان ، ولم يزل العود مستخدماً إلى يومنا هذا بالوضع الذى جعله عليه زرياب .

كذلك اخترع ريشة من قوادم النسر يضرب بها على العود، وكان الموسيقيون يعزفون بريشة من الخشب ، وقد وفق زرياب فى استخدام ريشة النسر فهى من ناحية خفيفة على الأصابع ، ومن ناحية أخرى تحافظ على سلامة الأوتار بعكس الريشة الخشبية .

توصل زرياب إلى مخترعاته جميعها بعد أن تهيأت له حياة الاستقرار فى قرطبة ، وبعد أن شعر بالرضا لما أضافه للعود وجّه عنايته إلى سائر الآلات الموسيقية ، حيث نقل إلى الأندلس جميع الآلات الموسيقية التى عرفها المشرق ، وأخذ يبتكر إضافات لتحسين أدائها ، وبذلك وفر لبلاد الأندلس ثروة من الآلات لم تتوفر لبلد آخر ، وجميعها تم التدريب عليها في أكاديمية الفنون التى أنشأها زرياب ، منها آلات وترية مثل العود القديم بأوتاره الأربعة ، والعود الجديد بأوتاره الخمسة ، والشهرود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والصنج ، والشقرة ، بالإضافة إلى الرباب - بأنواعها المختلفة - التى هى آلة وترية ذات قوس .

ومن الآلات الموسيقية أيضاً آلات النفخ مثل المزمار ، والسرنا ، والناى ، والشبابة ، والزمارة ، والقصبة ، والمقرونة ، والموصول ، والصفارة .

ومن الآلات النحاسية : البوق ، والنفير .

بالإضافة إلى آلات النقر مثل : الدفوف ، والغربال ، والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب، والنقارة ، والطبل .

* * *

أثر زرياب

جاءت بعثات طلابية من أسبانيا وفرنسا وألمانيا للدراسة فى قرطبة ، وقد بلغ عدد طلاب هذه البعثات (٧٠٠) طالب فى سنة (٢١٣) هجرية . وقد التحق عدد كبير منهم - ما بين طلاب وطالبات - بمدرسة زرياب . حيث درسوا أصول الموسيقا وطرق العزف على الآلات المختلفة ، وتتابعت البعثات الأوروبية إلى مدرسة زرياب ، وانتقلت الآلات الموسيقية العربية إلى أوروبا بواسطة هذه البعثات ، وانتقلت موسيقا زرياب وأساليبه الموسيقية ، فكانت الأساس الذى قامت عليه النهضة الفنية فى هذا المجال بأوروبا ، وتقول المستشرقة الألمانية د. زيجريد هونكا فى كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » . :

بينما كان الموسيقيون الأوربيون يعتمدون على ضبط الآلات الوترية على الأذن، كان طالب الموسيقا فى مدرسة زرياب يتعلم العزف بالعفق على دساتين وضعت على رقبة العود والجيتار ، قد قيست عليها المسافات الصوتية قياساً دقيقاً، وتعد هذه من المزايا الكبرى التى حببت الآلات الموسيقية العربية إلى الأوروبيين وبخاصة العود .

ثم تشير د. زيجريد هونكه إلى فضل زرياب على الموسيقا العالمية .. فتقول :

أما البناء الإيقاعى فهو شرقى أصيل ، والإيقاع يساعد على خلق « الموسيقا محدودة الزمن » ويؤدى مباشرة إلى نظام « المازورة » وقد يكون هذا هو أهم تراث موسيقى قدمه العرب لأوروبا .

وهكذا ظل أثر زرياب ممتداً فى العالم بأسره ، فإن الآلات التى انتقلت إلى أوروبا بواسطته لم تزل بأسمائها العربية حتى الآن مثل الطبل ، والدف ، والصنوج وغيرها ، وكانت موسيقاه المتفوقة باباً انطلق منه فنانو أوروبا إلى عالم الإبداع الرحب . وقد رأى زرياب أمجاده بعينيه ... ولكن لكل شىء نهاية .

لقد مرت السنوات ، وانطفأت شعلة الوهج ، وتوفى زرياب فى حدود سنة (٢٣٨) هجرية ، بعد أن عاش حياة حافلة ، توجت بالنجاح والسعادة ، لأنه استطاع أن يقهر كل صنوف الفشل التى واجهته ، قهرها بعزيمة قوية وإباء عنيد وإصرار لا يلين أمام عواصف الأيام ، وقدم للحياة فناً بديعاً امتد أثره إلى بلاد الدنيا ، وأثر في نواحى الحياة المختلفة فى الأندلس ، وقد خلف تراثاً موسيقياً يصل إلى عشرة آلاف لحن كما ذكرت المصادر ، لكن عدم التدوين أضاع هذا التراث الفريد ، وترك زرياب عدداً ضخماً من التلاميذ ، وابتكارات فى الآلات الموسيقية أذهلت الدنيا بأسرها ، لدرجة

أن د. كورت زاكس أستاذ تاريخ الآلات الموسيقية أعلن أن المبتكر الأول للبيانو هو زرياب ، إذ ذكرت له آلة ذات مفاتيح بيضاء فسوداء كانت توضع على المنضدة أثناء العزف .

ذلك هو زرياب . . . عبقرى النغم . . . الذى كان له دور عظيم فى تطوير الموسيقا ، وكان - بحق - واحداً من العباقرة الأفذاذ . . وسيظل نجماً مضيئاً فى سماء تاريخ الفنون بما قدمه من عطاء متميز . . . وسيظل واحداً من مشاهير العرب الذين أضاءوا جنبات الدنيا بإبداعهم المتفوق .

* * *

المراجـــع

١ - آنخل جنثالث بالنثيا - تاريخ الفكر الأندلسى - ترجمة د. حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة (١٩٩٥م).

٢ - ابن عذارى المراكشى - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق كولان وليفى بروفنسال ط ٣ - دار الثقافة - بيروت - (١٩٨٣م) .

٣ - أبو الحسن على بن بسام الشنتريني - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - تحقيق د.إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - (١٩٧٩م) .

٤ - أبو القاسم خلف بن بشكوال - كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس - تحقيق السيد عزت العطار الحسينى - ط٢ - مكتبة الخانجى - القاهرة - (١٩٩٤م) .

٥ - أبو الوليد عبد الله بن الفرضى - تاريخ علماء الأندلس - الدار المصرية للتأليف والترجمة - (١٩٦٦م) .

٦ - أحمد بن محمد المقرى - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - (١٩٨٨م) .

٧ - د.حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسى

والدينى والثقافى والاجتماعى - ط٧ - مكتبة النهضة المصرية- (١٩٩٤م) .

٨ - خير الدين الزركلى - الأعلام - ط٩ - دار العلم للملايين - بيروت - (١٩٩٠م) .

٩ - زيجريد هونكه - شمس العرب تسطع على الغرب - ترجمة فاروق بيضون، وكمال دسوقى - ط ٨ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - (١٩٨٦م) .

١٠ - شمس الدين أحمد بن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت- د .ت .

١١ - عبد الرحمن بن خلدون - تاريخ العلامة ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - عبد الرحمن بن خلدون المغربى - وضع فهارسه وقدم لها يوسف أسعد داغر - منشورات دار الكتاب اللبنانى - بيروت - (١٩٦٦م) .

١٢ - عبد العزيز عبد الجليل - الموسيقا الأندلسية المغربية - عالم المعرفة - الكويت - (١٩٨٨م) .

١٣ - على بن موسى بن سعيد - المغرب فى حُلَى المغرب - تحقيق د. شوقى ضيف - ط٣ - دار المعارف - (١٩٨٠م) .

١٤ - د. فوزى سعد عيسى - الشعر العربى فى صقلية - الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٩م) .

١٥ - كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربى - مجموعة من المترجمين - ط٥ - دار المعارف - مصر - (١٩٨٣م) .

١٦ - ليفى بروفنسال - الإسلام فى المغرب والأندلس - ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية- (١٩٩٠م) .

١٧ - د. محمد عبد الرحمن مرحبا - الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب - ط٢ - منشورات عويدات - بيروت - (١٩٨٨م) .

١٨ - محمد عبد الله عنان - دولة الإسلام فى الأندلس - مكتبة الخانجى - القاهرة - ط٣ - (١٩٨٨م) .

١٩ - د. محمود أحمد الحفنى - زرياب أبو الحسن على بن نافع موسيقار الأندلس - الدار المصرية للتأليف والترجمة - د.ت .

٢٠ - د. محمود أحمد الحفنى - إسحاق الموصلى - الدار المصرية للتأليف والترجمة - د.ت .

* * *

الفهرس

الصفحة

* * *

● صدر للمؤلف :

دواوين شعرية :

١ - أغنية لسيناء (مشترك) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (١٩٧٥م) .

٢ - الترحال فى زمن الغربة - المجلس الأعلى للثقافة - (١٩٨٤م) .

٣ - من سيمفونية العشق - المركز القومى للفنون والآداب - (١٩٨٥م) .

٤ - فصل فى الجحيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (١٩٨٥م) .

٥ - ولَهِيَّةٌ إلى الإسكندرية - مديرية الثقافة بالإسكندرية - (١٩٨٨م) .

٦ - النيل يعبر المواسم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - (١٩٩١م) .

٧ - قطرات من شلال النار - الهيئة العامة لقصور الثقافة - (١٩٩٣م) .

٨ - مسافات السفر - المجلس الأعلى للثقافة - (١٩٩٦م) .

دراسات :

١ - إطلالة على الشعر السعودى المعاصر - نادى جازان الأدبى - السعودية - (١٩٨٥م) .

٢ - أحمد بن ماجد أسد البحار - دار المعارف - (١٩٩٥م).

٣ - مبادئ العروض - مطبوعات أصوات معاصرة (١٩٩٧ م).

قصص الأطفال :

١ - عمر المختار - دار الشرق - دولة قطر - (١٩٨٩م) .

٢ - عبد الرحمن الداخل صقر قريش - دار الشرق - دولة قطر - (١٩٨٩م) .

٣ - الصوت الغريب - دار المعارف - (١٩٩٤م) .

❋ ❋ ❋